تعالى ربي عما يصفون علواً كبيراً

وقيل لابن الزاغوني: هل تجددت له صفة لم تكن بعد خلق العرش؟ قال: لا، إنما خلق العالم بصفة التحت فصار العالم بالإضافة إليه أسفل، فإذا ثبتت لإحدى الذاتين صفة التحت ثبت للآخر استحقاق صفة الفوق، قال: وقد ثبت أن الأماكن ليست في ذاته ولا ذاته فيها فثبت انفصاله عنها ولابد من بدء يحصل به الفصل فلما قال (استوى) علمنا اختصاصه بتلك الجهة، قال ولابد أن يكون لذاته نهاية واية يعلمها.

قلت: هذا رجل لا يدري ما يقول، لأنه إذا قدر غاية وفصلاً بين الخالق والمخلوق فقد حدده وأقر بأنه جسم، وهو يقول في كتابه: إنه ليس بجوهر لأن الجوهر ما تحيز، ثم يثبت له مكانًا يتحيز فيه، قلت: وهذا كلام جهل من قائله وتشبيه محض، فما عرف هذا الشيخ ما يجب للخالق تعالى وما يستحيل عليه.

فإن وجوده تعالى ليس كوجود الجواهر والأجسام التي لابد لها من حيز، والتحت والفوق إنما يكون فيما يقابل ويحاذي، ومن ضرورة المحاذي أن يكون أكبر من المحاذى أو أصغر أو مثله، وأن هذا ومثله إنما يكون في الأجسام، وكل ما يحاذي الأجسام يجوز أن يمسها، وما جاز عليه مماسة الأجسام ومباينتها فهو حادث، إذ قد ثبت أن الدليل على حدوث الجواهر قبولها المماسة والمباينة، فإن أجازوا هذا عليه قالوا بجواز حدثه، وإن منعوا جواز هذا عليه لم يبق لنا طريق لإثبات حدث الجهة، ومتى قدرنا مستغنيًا عن المحل والحيز ومحتاجًا إلى الحيز ثم قلنا: إما أن يكونا متجاورين أو متباينين كان ذلك محالاً فإن التجاور والتباين من لوازم التحيز في المتحيزات.

وقد ثبت أن الاجتماع والافتراق من لوازم التحيز، والحق سبحانه وتعالى

لا يوصف بحركة ولا سكون ولا اجتماع ولا افتراق، ومن جاور أو باين فقد تناهى ذاتًا، والتناهي إذا اختص بمقدار استدعى مخصصًا، وكذا ينبغي أن يقال ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه لأن الدخول والخروج من لوازم المتحيزات ، فهما كالحركة والسكون وسائر الأعراض التي تحس بالأجرام(١) .

وأما قولهم: «خلق الأماكن لا في ذاته فثبت انفصاله عنها، قلنا ذاته المقدسة لا تقبل أن يخلق فيها شيء ولا أن يحل فيها شيء ، وقد حملهم الحس على التشبيه والتخليط حتى قال بعضهم: إنما ذكر الاستواء على العرش لأنه أقرب الموجودات إليه، وهذا ج هل أيضًا لأن قرب المسافة لا يتصور إلا في جسم، ويعز علينا كيف ينسب هذا القائل إلى مذهبنا.

واحتاج بعضهم بأنه على العرش بقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] وبقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ٦١] وجعلوا ذلك فوقية حسية، ونسوا أن الفوقية الحسية إما أن تكون لجسم أو جوهر، وأن الفوقية قد تطلق لعلو المرتبة فيقال: فلان فوق فلان. ثم إنه كما قال تعالي فوق عباده قال تعالى: ﴿وهو معكم﴾ [الحديد: ٤] فمن حملها على العلم حمل خصمه الاستواء على القهر.

وذهبت طائفة إلى أن الله تعالى على عرشه قد ملأه والأشبه أنه مماس للعرش، والكرسي موضع قدميه. قلت المماسة إنما تقع بين جسمين ، وما أبقى هذا في التجسيم بقية.

فصل:

فإن قيل: فقد أخرج في الصحيحين من حديث شريك بن أبي نمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر المعراج فقال فيه: فعلا به إلى الجبار تعالى فقال وهو في مكانه «يا رب خفف عنا».

الجواب: أنا أبا سليمان الخطابي قال هذه لفظة انفرد بها شريك ولم يذكرها غيره وهو كثير التفرد بمناكير الألفاظ والمكان لا يضاف إلى الله تعالى إنما هو مكان النبي ﷺ ومقامه الأول الذي أقيم فيه وفي هذا الحديث ـ فاستأذنت على ربي وهو في داره ـ يوهم مكانًا وإنما المعنى في داره التي دورها لأوليائه، وقد قال القاضي (أبو يعلى) في كتابه المعتمد: إن الله عز وجل لا يوصف بالمكان.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك:١٦] قد ثبت قطعًا أن الآية ليست على ظاهرها لأن لفظة (في) للظرفية والحق سبحانه وتعالى غير مظروف وإذا منع الحس أن ينصرف إلى مثل هذا بقي وصف العظيم بما هو عظيم عند الخلق.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦] أي في طاعته وأمره لأن التفريط لا يقع إلا في ذاته وأما الجنب المعهود من ذي الجوارح فلا يقع فيه تفريط.

وقال ابن حامد نؤمن بأن لله سبحانه وتعالى جنبًا بهذه الآية فواعجبًا من عدم العقول، إذا لم يتهيأ التفريط في جنب مخلوق فكيف يتهيأ في صفة الخالق جل جلاله، وأنشد ثعلبة:

«خليلي كفا واذكرا الله في جنبي، أي في أمري».

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] قال المفسرون أي من رحمتنا وإنما نسب الروح إليه لأنه بأمره كان.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: يؤذون أولياءه كقوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ أي: أهلها وقال ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**» وقال الشاعر:

أنبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس

ومنها قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ أي بظلل وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] ذكر القاضي (أبو يعلى) عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال فى قوله تعالى: ﴿أن يأتيهم الله﴾ قال المراد به قدرته وأمره وقد بينه في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ومثل هذا في التوراة، وجاء ربك، قال إنما هي قدرته.

قال ابن حامد وهذا خطأ إنما ينزل بذاته بانتقال. قلت وهذا كلام في ذات الله تعالى بمقتضى الحس كما يتكلم في الأجسام.

قال ابن عقيل في قوله تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥] قال من كف خلقه عن السؤال عن مخلوق فكفهم عن الخالق وصفاته أولى وأنشدوا:

كيفية النفس ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار في القدم(1)